الثقـــافة

معناها — حدودها — عواملها

للأستاذ عبد الحميد حسن

المفتش بوزارة المعارف

نتحدث عن الثقافة ، وعن الرجل المثقف ، والسيدة المثقفة ، وننشد في مدارسنا قسطاً قليلاً أو كثيراً من الثقافة ، ونرى ذلك لا بد منه لحياة المتعلمين ، ونهتم فى نظامنا التعليمى بمرحلة الثقافة العامة ، إلى غير ذلك مما ينبئ أن الثقافة من دعائم الحياة الناهضة ، وأن قسطاً منها لا بد منه لوحدة التفاهم بين الجماعات والشعوب ، فما معنى هذا ؟ وما الثقافة ؟ وما حدودها ؟ وما عواملها ؟ ولماذا ننشدها ؟

ولعل أول ما نتجه إليه هو أن نعرف ما يقصد بالرجل المثقف ، وأن نتعرف أمثلة له فى الخارج : أهو الطبيب الماهر ، أم المهندس البارع ، أم الأديب الملم بفنون القول ، أم القاضى المحيط بدقائق القانون ، أم الاقتصادى الذى له بالنظم المالية خبرة شاملة ، أم السياسى الذى لا تتعاصى على مواهبه معضلة ؟

أم ماذا عسى أن يكون من أصناف المتعلمين ؟ أهو الذى درس الآداب وفروعها واللغة وقواعدها ؟ أم الذى أحاط بالعلوم الطبيعية والرياضية ؟ أم الذى تزود بقسط وافر من التاريخ وأسباب التبدل الدولى وتحول مركز المدنية من بقعة من بقاع الأرض إلى غيرها ؟

وهل يرجع الجانب الثقافى فى هؤلاء أو أحدهم إلى مهارتهم ومقدرتهم العقلية وبراعتهم الفكرية ؟ أم هو راجع إلى ما حصلوا من معارف أو ما وهب لهم من ذكاء ؟ أم إلى ما اكتسبوا من لباقة وخبرة ؟

قد يكون هؤلاء جميعاً مثقفين على اختلاف فيما تخصصوا فيه من علوم أو فنون ؛ وقد يكون بعضهم بعيداً عن الثقافة ضئيل الإلمام بما يقربه منها على غزارة ما جمع من حقائق فى المادة التى اختص بها ، فالثقافة إذن ليست هذا الجانب العلمى

أو الفنى الذى فاضوا في الاستزادة منه وتعمقوا فى دراسته ؛ وإن ما تتطلبه الثقافة من معارف لاينتمى إلى علم واحد خاص ولا إلى مجموعة من العلوم أو الفنون بعينها ؛ ولكن لاجدال فى أن الثقافة تتضمن جانباً علمياً يحصله الإنسان بالدراسة والمزاولة ، بل إن هذا القدر العلمى وذلك الجانب التحصيلى هو محور الثقافة وعامل ذو شأن فى أهم مظاهرها ومقوماتها .

فماذا عسى أن يكون هذا الجانب ؟ وما حدوده ؟ وإلى أى علم ينتمى ؟

وقبل البحث فى هذا ننظر فيما عسى أن يكون هناك من صفات أخرى تتم بها الثقافة إلى جانب التحصيل العلمى

إن الإلمام العلمى وإن كان هو أهم مقومات الثقافة ليس وحده الذى يحقق الثقافة . فالمثقف ليس هو الذى يملأ جعبته بالحقائق ويكدسها فى عقله أو يجرى لسانه بها مجملة أو مفصلة دون اعتداد بصفات أخرى ينبغى أن تتوافر حتى تتم الثقافة فى درجة من درجاتها . ولابد إلى جانب المعرفة من عوامل أخرى أهمها المواهب المصقولة والعقل المرهف والمهارة . ولكن ليس المقصود بها مهارة يدوية أو صناعية ، بل المراد هو المهارة فى صوغ المعلومات وترتيبها والتفكير فيها تفكيراً منظما منسجما ، وحسن التعبير عنها واللباقة فى أدائها

فعناصر الثقافة إذن هى :

(ا) كسب المعارف (ب) كسب المهارة (جـ) لباقة اجتماعية وانسجام فى الصوغ وحسن الأداء

ولنذكر بعض الآراء فى الثقافة نوضح بها بعض وجهات النظر ونتبين من خلالها ما يزيد البحث تحديداً :

(١) هى نوع من الصقل العقلى والفنى

(٢) هى الإلمام بخير ما عرف وقيل

(٣) هى القدرة على التفكير المنظم وعلى الكلام والكتابة مع ميل إلى الفن الجميل والآثار الأدبية والاعجاب بها ، واحترام التقاليد والمثل العليا

(٤) هى النظر فى الحقائق والقدرة على الانتفاع بها وشحذ المواهب العقلية

(٥) هى مقدرة اجتماعية وقوة يتعاون فى إيجادها عوامل ثلاثة : الحقائق التى نلم بها ، والبراعة التى نكسبها ، والقوة العقلية التى ننميها

(٦) هى صقل الأفكار والآراء والنظريات الانسانية مع فهم القوانين الاجتماعية

(٧) ليست هى الالمام بالآثار العلمية فحسب أو التهام الحقائق التهاماً جافاً بعيداً عن الحياة الاجتماعية التى تصهرها وتصقلها وتصوغها صوغاً يخرجها أمام الناس

(٨) هى أن يفهم الانسان المجتمع ويلم بما يؤثر في أفراده وعقلياتهم واتجاههم الحيوى .

* * *

من كل هـذا يظهر أن هناك عاملاً أساسياً فى الثقافة وهو التحصيل لغاية خاصة تتصل بالمجتمع وبخير ما أنتج العقل الإنسانى . فإن الثقافة ليست صفة فردية منعزلة عن المجتمع وما فيه وهى إنما تنمو فى بيئة اجتماعية . أى أنه لابد أن تكون هذه الحقائق مما يدور فى المجامع ومما له صلة بالحياة فى مظاهرها العامة . ولا بد أيضاً من صقل هذه المعلومات وإنضاجها حتى لا تكون جافة نابية . وعلى قدر تخير هذه الحقائق تخيراً يقرب من حاجات المجتمع يكون أثرها وقيمتها فى الثقافة

قلنا إن العامل الأساسى فى الثقافة هو التحصيل والمعرفة ، وهذا يصل بنا إلى نقطة أخرى ، وهى الفرق بين الثقافة والذكاء ، وهل الذكاء من العوامل المهمة فى الثقافة

ويبدو من العوامل التى استعرضناها وقلنا إنها من مقومات الثقافة أن الذكاء ليس من العوامل الأساسية فى الثقافة ، على أنه لا يتعارض معها . فالذكاء له حدود وله مقاييس ابتكرها العلماء . أما الثقافة فمقياسها الأساسى هو التحصيل والقدرة على حسن عرض المعلومات فى مهارة ولباقة وانسجام . وقد يكون فى ثنايا ذلك شىء من الذكاء ، ولكنه ليس شرطاً أساسياً فى الثقافة ، كما أن الثقافة ليست شرطاً أساسياً فى الذكاء ؛ فقد يكون الذكى طفلاً لم تصل معارفه إلى حد الثقافة التامة الشاملة ؛ وقد يكون المثقف متوسط الذكاء ، فالثقافة إنما تتطلب المواهب المتعادلة لا الذكاء المفرط

* * *

ولننتقل بعد هذه الالمامة العامة إلى البحث فى ذلك العامل الأساسى وهو التحصيل ، لنتعرف حدوده العامة والخاصة ، ولنصل إلى تحديد الشعب العلمية التى يتضمنها وإلى ما يجب تحصيله من كل منها ، أى أن نتعرف المحيط الثقافى وعمقه

هل الثقافة هى الإلمام بكل شىء ، أو التوفر على بعض العلوم وإتقانها ؟

ليس هذا ولا ذاك هو ما تتطلبه الثقافة ، فالإلمام بكل شىء يصل إلى أن تكون المعلومات سطحية ، ومتعمق فى علوم محدودة أو في علم واحد دون الإلمام بشىء آخر مما له فى الحياة شأن ، قصور ... فالثقافة ليست بحراً لا ساحل له أو غوراً لاقرار له

وإذا كان كلا طرفى التحصيل : الإلمام بكل شىء ، والتوفر على علم واحد ، ليس مما يحقق الثقافة ، فماذا عسى أن نسلك بالمتعلم من السبل فى التحصيل ليكون مثقفاً ؟

يجدر بنا فى هذه الصدد أن نحل المعضلة بطريقة نوفق بها بين الالمام الشامل أو الاحاطة العامة وبين التعمق النافع مع الابتعاد عن التحصيل السطحى الأجوف غير الجدى ، فمعرفة كل شىء لا تصل بنا إلى شىء ، والتوفر على شىء واحد يعزلنا عن كل شىء

وهل معنى هـذا أن نقول إن معرفة القليل من موضوع ما هى الثقافة ، والتعمق فيه هو التخصص ؟

إن الحل على هذا الأساس إنما هو حل على أساس الكم ، وهذا لا يصل بنا إلى المطلوب . ولا ينبغي أن تكون الكثرة أو القلة فى مقدار ما يحصله من المعلومات هى الأساس فى الثقافة .

لعلنا إذا رجعنا إلى بعض ما سردناه فى حقيقة الثقافة استطعنا أن نصل إلى الحل المنشود : فقد تبين من خلال ما أشرنا إليه أن الثقافة ليست صفة فردية ، بل هى صفة اجتماعية تتصل بالمجتمع وشئونه ، والمعلومات التى ترتكز عليها الثقافة هى ما كانت ذات صلة بالمجتمع ، وهى التى تصقل فى البيئة الاجتماعية . فالمجتمع عامل قوى فى تحديد ما ينبغى أن يلم به الوطنى المثقف من المعارف لكي يعيش عيشة صالحة ويشارك الأفراد فى الرأى ويبادلهم وجوه التفكير . وإن الاتجاه إلى المجتمع

يحدد لنا الطريق . على أنه يجدر بنا أن نعلم أن كل مجتمع تغمره صفات ونزعات وتسيطر عليه وتوجهه توجيهاً خاصاً حيناً من الدهر . وقد تعصف الأحداث ويدور الزمن دورته فتتبدل هذه النزعات وتتغير تبعاً لذلك وجهات النظر فى الثقافة وفى المحيط العلمى الذى تنتزع منه مواد الثقافة :

فى أوربا بعد عصر النهضة كانت الآداب القديمة اليونانية واللاتينية هى منبع الثقافة والمعرفة ولم يكن للعلوم شأن يذكر .

ثم نالت العلوم نصيبها من العناية والبحث وأصبحت ذات شأن فى البيئات التعليمية وأصبح الالمام بالكون ومظاهره الطبيعة مما يرتبط به خير المجتمع وصارت العلوم عنصراً من عناصر الثقافة

ثم اتسع النطاق بتقدم الزمن وتدرج المدنية فى نهوضها ، وسارت الثقافة تابعة لذلك تستمد حدودها من هذا المحيط الاجتماعى المتجدد طبقاً لسنه الرقى ، وترتكز فى تخير عناصرها على محور ثابت وهو الصلة بخير المجتمع ، فما له ارتباط بهذا يدخل فى ميدان علوم الثقافة

ومن هذا يتبين أن القاعدة التى نستطيع أن نسترشد بها فى تخير مواد الثقافة هى حاجة المجتمع فى معاملات الأفراد والالمام بما لابد منه للحياة بين المجتمع ، مع استخدام ذلك استخداماً عاماً والانتفاع به فى شؤون الحياة .

ويتجه كل شعب فى التحصيل الثقافى إلى الذخائر التى أنتجها المجتمع وتركها السابقون وتوفر على العناية بها الجيل الحاضر ، فهذه الذخائر تراث لاغنى عنه وحلقة اتصال بين الأفراد فى تعاونهم العقلى وتفاهمهم

وإن اختلاف الشعوب فى حياتها ونزعاتها وماضيها وتراثها العلمى ليوحى بشىء من التباين فى المحيط الثقافى لكل منها . غير أن ما هنالك من قدر مشترك فى الشعوب من صفات إنسانية ونزعات عقلية وميول عامة ومقاصد حيوية ، يجعلنا لا نجحم عن تحديد المواد الدراسية اللازمة لكل شعب ، وإن كان هذا التحديد لا يمنع من بعض التغيير الطفيف مما تقتضيه الأحوال

والمواد التى تدرس للثقافة ينبغى أن تمكن الفرد من معرفة الأصول العامة للحياة فى المجتمع ومعاملة أفراده . وهذا يشمل المواد الآتية :

اللغة — الفنون الجميلة — التاريخ والتربية الوطنية — الرياضة — العلوم الطبيعية — علم الحياة — الاقتصاد — طبقات الأرض — شيء من الفلسفة هذا فيما يتعلق بالمحيط الثقافي وما يتضمن من مواد علمية . فلننظر بعد ذلك هذا العمل الثقافي في كل علم من هذه العلوم

وإن القاعدة التي نسترشد بها في ذلك هي بعينها التي روعيت في تحديد المحيط الثقافي ، وهي أن يلم الفرد بما لابد منه للحياة في المجتمع من معارف لكي ينتفع بها في الشئون العامة وليتخذ منها عوناً على الحياة الصالحة ووسيلة لتبادل الرأي مع أنداده من أفراد المجتمع حتى تقترب وجهات النظر ويسهل التفاهم والتعاون على الخير

ولسنا بصدد التفصيل الشامل لما يختار من العناصر في المواد المختلفة ، ولكنا نضرب بعض أمثلة تبين الاتجاه في الاختيار .

ففي دراسة موضوع في الطبيعة كالآلات البخارية لا نتجه إلى دراسة التركيب التفصيلي العلمي لها بل نتعرض للمحركات وأثرها في العمران وللآلات التي تسير بالبخار أو بالزيوت أو بالكهرباء وعلاقة ذلك بالصناعة وبالحياة في المدن والريف وأثره في رخاء الانسان وصحته وخيره العام .

وفي موضوع كالمجالس المحلية لا نرمي إلى التفصيل السياسي بل نتجه إلى البحث في الطرق التي تسير عليها هذه الهيئات في العمل وفي أثر ذلك في نظام المجتمع ومصالحه

وفي دراسة اللغة للثقافة العامة لا نرمي إلى أن يتعلمها الفرد لكي يعلمها غيره بل ليتمكن بدراستها من النهوض الفكري والانساني وليفهم من ذخائر المجتمع ما يصله به وبأفراده حتى تكون وحدة التفاهم شاملة مشتركة

وتدرس الفنون الجميلة لا لتجعل الفرد فناناً بل لتنمي في نفسه حب الجمال والاعجاب بمظاهر الكون وبما نسقه ذوو الذوق السليم

وهكذا نجد أن الإعداد الثقافي إنما يرمي إلى ما يجعل الحياة نافعة للجميع

وسنعالج الموضوع من بعض النواحي المتصلة به في كلمة أخرى

عبد الحميد حسن